سورة القيامة

هى مكية، وعدد آيها أربعون ، نزلت بعد سورة القارعة .

ووجه اتصالها بما قبلها ، أنه ذكر فى السورة السابقة قوله : « كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ » وكان عدم خوفهم منها لإنكارهم للبعث ، وذكر هنا الدليل عليه بأتم وجه ، فوصف يوم القيامة وأهواله وأحواله ، ثم ماقبل ذلك من خروج الروح من البدن ، ثم ماقبل ذلك من مبدإ الخلق .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (١) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ؟ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) .

شرح المفردات

(لا أقسم) تزيد العرب كلمة (لا) فى القسم كما قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

ويرى قوم أن (لا) نافية ردّ الكلام كان قد تقدم وجواب لهم ، وذلك هو

المعروف فى كلام الناس فى محاوراتهم ؛ فإذا قال أحدهم : لا والله لا فعلت كذا — قصد بقوله (لا) رد الكلام السابق ، و بقوله والله ابتداء يمين ، فهم لما أنكروا البعث قيل لهم : ليس الأمر على ماذكرتم ؛ ثم أقسم بيوم القيامة و بالنفس اللوامة : إن البعث حق لاشك فيه .

ويرى جمع من المفسرين أنها للنفى على معنى أنى لا أعظمه بإقسامى به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من هذا وهو يستأهل فوق ذلك .

قال مجاهد : النفس اللوامة هى التى تلوم نفسها على مافات ، وتندم على الشر لم فعلته ؟ وعلى الخير لم لم تستكثر منه ؟ فهى لم تزل لائمة و إن اجتهدت فى الطاعات (بلى) كلمة يجاب بها إذا كان الكلام منفيا ، فالمراد بها هنا نعم نجمعها بعد تفرقها ، والبنان واحده بنانة وهى الأصابع . قال النابغة :

بمخضّب رخص كأن بنانه عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعْقَد

ليفجر أمامه : أى ليدوم على فجوره فى الحاضر والمستقبل لاينزع عنه ، برق تحير فزعاً من قولهم : برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدُهش بصره ، قال ذوالرمة :

ولوَ أنَّ لقمان الحكيم تعرّضت لعينيه مىٌّ سافراً كاد يبْرَق

وخسف القمر : ذهب ضوءه ، والمفر : الفرار ، والوزر : الملجأ ؛ وأصله الجبل المنيع ، ومنه قوله :

لعَمْرُك ما للفتى من وَزَرْ من الموت يدركه والكِبَرْ

ينبأ : أى يخبر ، بصيرة : أى حجة شاهدة على ما صدر منه ، والمعاذير : ما يعتذر به .

المعنى الجملى

أقسم تعالى بعظمة القيامة ، و بالنفس الطموحة إلى الرقىّ ، الجانحة إلى العلوّ ، التى لاتصل إلى مرتبة إلا طلبت مافوقها ، ولا إلى حال إلا أحبت ما تلاها — إن

هناك حالا أخرى للنفس تنال فيها رغائبها ، فى عالم أكمل من هذا العالم ، عالم السعادة الروحية للطيعين ، وعالم الشقاء للجاحدين المعاندين .

وهذا القسم وأمثاله لم يطرق آذان العرب من قبل ، فهم كانوا يقسمون بالأب والعمر والكعبة ونحو ذلك .

روى أن عدىّ بن أبى ربيعة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم القيامة متى يكون وماحاله وأمره فأخبره به ، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أومن بك ، أو يجمع الله هذه العظام ؟ فنزلت هذه الآيات ، ولهذا كان النبى صلى الله وعليه سلم يقول : « اللهم اكفنى شر جارى السوء » .

الإيضاح

(لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة) أقسم سبحانه بيوم القيامة وعظيم أهواله ، وبالنفس التواقة للمعالى التى تندم على الشر لم فعلته ، وعلى الخير لِمَ لم تستكثر منه ، فهى لم تزل لائمة وإن اجتهدت فى الطاعة ـ لتبعثنّ ولتحاسبنّ على ماتفعلون .

وقال الفرّاء : ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهى تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيرا قالت هلاّ ازددتِ ، وإن كانت عملت سوءا قالت ليتنى لم أفعل ، وعلى هذا فهو مدح للنفس ، والقسم بها سائغ حسن اهـ .

وقسمُه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيم شأنه ، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه . قال سعيد بن جُبير : سألت ابن عباس عن قوله « لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه .

(أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوّى بنانه) أى أيظن ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها ؟ بلى نحن قادرون على ذلك وأعظم منه ، فنحن قادرون على أن نسوى بنانه وأطراف يديه ورجليه ، ونجعلهما

شيئاً واحدا كخف البعير وحافر الحمار ، فلايستطيع أن يعمل بها شيئا مما يعمله بأصابعه المفرّقة ذات المفاصل والأنامل ، من فنون الأعمال التى تحتاج إلى القبض والبسط ، والتأنى فى عمل ما يراد من الشئون كالغزل والنسج والضرب على الأوتار والعيدان ، إلى نحو أولئك .

والخلاصة — إنا لقادرون على جمع العظام وتأليفها و إعادتها إلى مثل التركيب الأول بعد تفرقها وصيرورتها عظاما ورفاتا فى بطون البحار ، وفسيح القفار ، وحيثما كانت ، وعلى أن نسوّى أطراف يديه ورجليه ونجعلهما شيئا واحدا فيكون كالجمل والحمار ونحوهما ، فيأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب ، وفى ذلك خسران كبير له ، وتشويه لخلقه ، و إفساد لوظيفته التى أعدّ لها فى الحياة .

(بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) أى لايجهل ابن آدم أن ربه قادر على أن يجمع عظامه ، لكنه يريد أن يمضى قُدُما فى المعاصى لايثنيه عنها شئ ، ولا يتوب منها ، بل يسوّف بالتوبة فيقول : أعمل ثم أتوب بعد ذلك .

والخلاصة — إنه انتقل من إنكار الحسبان ، إلى الإخبار عن حال الإنسان الحاسب ، ليكون ذلك أشد فى لومه وتوبيخه كأنه قيل : دع تعنيفه على ذلك ، فإنه قد بلغ من أمره أنه يريد أن يداوم على فجوره فيما يستأنف من الزمان ولا يتخلى عنه .

ثم علل إرادته دوام الفجور بقوله :

(يسأل أيان يوم القيامة ؟) أى يسأل سؤال متعنت مستبعد ، متى يكون هذا اليوم ؟ ومن أنكر البعث أشد الإنكار ، ارتكب أعظم الآثام ، وخبّ فيها ووضع غير عابئ بعاقبة مايصنع ، ولامقدّر نتائج ما يكتسب .

ونحو الآية قوله : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ » ، وقوله : « هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ . إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » .

وقصارى ماسلف أنهم أنكروا البعث لوجهين :

(١) شبهة تعترض الخاطر : كقولهم إن أجزاء الجسم إذا تفرقت واختلطت بالتراب، وسارت فى مشارق الأرض ومغاربها ، كيف يمكن تمييزها و إعادتها على النحو الذى كانت عليه أوّلا ، ولهؤلاء جاء الردّ بقوله : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ » .

(٢) حبّ الاسترسال فى اللذات ، والاستكثار من الشهوات ، فلا يود أن يقرّ بحشر ولا بعث حتى لا تتنغص عليه لذاته ، ولمثل هؤلاء قال : « بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ » .

وقد ذكر سبحانه من علامات يوم القيامة أمورا ثلاثة فقال :

(١) (فإذا برق البصر) أى إذا تحير البصر ودهش فلم يطرف من شدة الهول ومن عظم ما يشاهد ، قال الفرّاء : تقول العرب للإنسان المتحير المبهوت : قد برِق ، وأنشد :

فنفسَكَ فانعَ ولا تَنْعَنى ودارِ الكلوم ولا تبْرَقِ

أى لاتفزع من كثرة الكلوم والجروح التى أصابتك .

ونحو الآية قوله : « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » .

(٢) (وخسف القمر) أى ذهب ضوءه ، كما نعقله من حاله فى الدنيا ، إلا أن الخسوف فى الدنيا إلى انجلاء ، وفى الآخرة لايعود ضوءه .

(٣) (وجمع الشمس والقمر) أى أدرك كل واحد منهما صاحبه وطلعا من المغرب أسودين مكوّرين مظلمين على ماروى عن ابن مسعود، وقد كان هذا مستحيلا فى الدنيا كما جاء فى قوله سبحانه : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » .

(يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟) أى يقول الإنسان حينئذ لدهشته وحيرته : أين المفرّ من جهنم ؟ وهل من ملجأ منها ؟ فأجيبوا حينئذ :

(كلا لاوزر) أى كلا لاشئ يُعتصمُ به من أمر الله ، فلا حصن ولا جبل ولا سلاح يقيكم شيئاً من أمره ، قال السُّدى : كانوا إذا فزعوا فى الدنيا تحصنوا بالجبال ، فقال الله لهم : لاوزر يعصمكم منى .

ونحو الآية قوله : « مَالَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ » .

ثم كشف عن حقيقة الحال و بيّنها بقوله :

(إلى ربك يومئذ المستقر) أى إلى ربك مرجعك فى جنة أونار ، وأمر ذلك مفوّض إلى مشيئته ، فمن شاء أدخله الجنة ، ومن شاء أدخله النار .

ونحو الآية قوله : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » .

ثم ذكر أن مآله رهن بما عمل فقال :

(ينبأ الإنسان يومئذ بما قدَّم وأخر) أى يخبر الإنسان حين العرض والحساب ووزن الأعمال — بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها كما قال : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

قال القشيرى : وهذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال ؛ وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبع يُجْرَى أجرها للعبد بعد موته وهو فى قبره ، من علّم علما ، أوأجرى نهرا ، أوحفر بئرا ، أوغرس ظلا ، أو بنى مسجدا ، أوورّق مصحفا ، أو ترك وليّا يستغفر له بعد موته » .

ثم بيّن أن أعظم شاهد على المرء نفسه ، فهى نعم الشاهد عليه فقال :

(بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) بل الإنسان حجة بيّنة على نفسه ، فلا يحتاج إلى أن ينبئه غيره ، لأن نفسه شاهدة على مافعل ، فسمعه و بصره ويداه ورجلاه وجوارحه شاهدة عليه ، وسيحاسب عليه مهما أتى بالمعاذير وجادل

عنها كما قال : « اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » .

وقال الفراء فى الآية : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ، وأنشد :

كأن على ذى العقل عيناً بصيرة ... بمجلسه أو منظر هو ناظرهْ

يحاذر حتى يحسب الناس كلهم ... من الخوف لا يخفى عليهم سرائرهْ

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) .

شرح المفردات

لتعجل به : أى لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك ، وقرءانه : أى قراءته أى إثباتها فى لسانك ، قرأناه : أى قرأه جبريل عليك ، فاتبع قرءانه : أى فاستمع قراءته ، وكررها حتى يرسخ فى نفسك ، بيانه : أى تفسير مانيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل من معانيه ، والعاجلة : دار الدنيا ، ناضرة : أى متهللة بشرا بما ترى من النعيم ، ناظرة : أى تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب ، باسرة : أى شديدة العبوس كالحة متغيرة مسودة ، تظن : أى تستيقن ، فاقرة : أى داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المنكر للقيامة والبعث معرض عن آيات الله ، منكر لعظيم قدرته ، وأنه سائر فى غلوائه ، غير مكترث بما يصدر منه — أردفه بذكر حال من

يثابر على تعلّم آيات الله وحفظها وتلقنها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها ، رجاء قبوله إياها ، ليظهر بذلك تباين حال الفريقين : من يرغب فى تحصيل آيات الله ، ومن يرغب عنها « و بضدها تتبين الأشياء» ثم عاد إلى ذكر السبب فى إنكار البعث وهو حبّ بنى آدم للعاجلة ، وتركهم الآخرة ، ثم ذكر ما يكون فى ذلك اليوم من استبشار المؤمنين و بُسُور المشركين وملاقاتهم للشدائد والأهوال ، وظنهم أن ستترا كم عليهم الدواهى التى تكسر فقار ظهورهم .

الإيضاح

علّم الله رسوله كيف يتلقى الوحى من الملَك ، إذ كان يسابقه فى قراءته فأمره أن يستمع إليه إذا جاء وقد كفل له : (١) أن يحفظه له . (٢) أن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه . (٣) أن يبينه و يفسره له .

وقد أشار إلى الأول بقوله :

(لاتحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرءانه) أى لاتحرك أيها الرسول الكريم بالقرءان لسانك وشفتيك ، لتأخذه على عجلة مخافة أن يتفلّت منك ، فإن علينا أن نجمعه لك حتى تثبته فى قلبك . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى يحرك به لسانه وشفتيه ، فيشتد عليه و يُعرف ذلك فى تحريكه شفتيه حتى نزلت الآية ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما أمره الله .

عن ابن جُبير عن ابن عباس قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة بتحريك شفتيه ، فقال لى ابن عباس: أنا أحركهما كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله عز وجل : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ » رواه مسلم .

وأشار إلى الثانى بقوله :

(فإذا قرأناه فاتبع قرءانه) أى فإذا تلى عليك فاعمل بما فيه من شرائع وأحكام. وقد يكون المراد — فإذا تلاه عليك الملَك فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك .

وأشار إلى الثالث بقوله :

(ثم إن علينا بيانه) أى ثم إنا بعد حفظه وتلاوته ، نبيّنه لك ونلهمك معناه على ما أردنا وشرحنا .

ثم أعاد القول فى توبيخ المشركين على إنكارهم للبعث فقال :

(كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) أى ليس الأمر كما تقولون أيها المشركون : من أنكم لاتبعثون بعد مماتكم ، ولا تجازون بأعمالكم ، ولكن الذى دعاكم إلى قيل ذلك محبتكم للدنيا العاجلة، وإيثاركم شهواتها على آجل الآخرة ونعيمها، فأنتم تؤمنون بالعاجلة وتكذبون بالآجلة .

قال قتادة — اختار أكثر الناس العاجلة إلا من رحم الله وعصم .

والخلاصة — إنكم يابنى آدم خلقتم من عجل وطبعتم عليه ، فتعجلون فى كل شىء ، ومن ثمّ تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة .

ثم بيّن ما يكون من أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين فقال :

(١) (وجوه يومئذ ناضرة) أى فوجوه المؤمنين المخلصين حين تقوم القيامة مضيئة مشرقة ، تشاهد عليها نضرة النعيم .

(إلى ربها ناظرة) أى تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب ، قال جمهور أهل العلم: المراد بذلك ماتواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر .

قال ابن كثير : وهذا يحمد الله مجمع عليه من الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام اهـ .

روى البخارى فى صحيحه « إنكم سترون ربكم عيانا » وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة « أن ناساً قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال : هل تضارّون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ قالوا لا ، قال : فإنكم ترون ربكم كذلك » .

وروى ابن جرير عن مجاهد أنه قال : إن النظر هنا انتظار مالهم عند الله من الثواب ، قال الأزهرى : قد أخطأ مجاهد ؛ لأنه لايقال نظر إلى كذا بمعنى انتظر ، فإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا انظرته، وأشعار العرب وكلماتهم فى هذا كثيرة جدا اه .

(٢) (ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة) أى ووجوه الفجار تكون يوم القيامة عابسة كالحة مستيقنة أنها ستصاب بداهية عظيمة تقصم فقار ظهرها وتهلكها .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » وقوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ » .

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ؟ (٢٧) وظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧)

ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) .

شرح المفردات

التراقى : العظام المكتنفة ثغرة النحر عن يمين وشمال، واحدها ترقوة ، من راق: أى من يرقيه و ينجيه مما هو فيه على نحو مايستشفى به الملسوع والمريض من الكلام الذى يُعدّ لذلك ؛ والمراد هل من طبيب يشفى بالقول أو بالفعل ، الفراق : أى من الدنيا حبيبته ، التفّت الساق بالساق : أى التوت عليها حين هلع الموت وقلقه ؛ والمراد أنه اشتد عليه الخطب ، المساق : المرجع والمآب ، فلا صدّق ولا صلى : أى فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه ، يتمطى : أى يتبختر افتخارا ، أولى لك : أى ويل لك ، وهو دعاء عليه بأن يليه مايكره ، فأولى : أى فهو أولى بك من غيرك ، فدلت الأولى على الدعاء عليه بقرب المكروه ، ودلت الثانية على الدعاء عليه بأن يكون أقرب إليه من غيره ، سدًى : أى مهملا لايؤمر ولا ينهى ، ولا يكلف فى الدنيا ولا يحاسب ، نطفة : أى ماء قليلا وجمعها نطاف ونُطَف ، يمنى : أى يراق ويصب فى الرحم ، علقة : أى قطعة دم جامد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحوال يوم القيامة وما يُرى فيها من عظيم الأهوال ، ووصف سعادة السعداء ، وشقاوة الأشقياء بيَّن أن الدنيا لها نهاية ونفاد ثم تكون مرارة الموت وآلامه ، وأن الكافر قد أضاع الفرصة فى الدنيا ، فلا هو صدَّق بأوامر دينه ، ولا هو أدَّى فرائضه .

ثم أقام الدليل على صحة البعث من وجهين :

(١) أنه لابد من الجزاء على صالح الأعمال وسيئها، وثواب كل عامل بما يستحق، وإلا تساوى المطيع والعاصى ، وذلك لا يليق بالحكيم العادل جل وعلا .

(٢) أنه كما قدَر على الخلق الأول وأوجد الإنسان من منيٍّ يُمنى ، فأهون عليه أن يعيده خلقاً آخر ! .

الإيضاح

(كلا) ردع وزجر : أى ازدجروا وتنبهوا إلى مابين أيديكم من الموت ، فأقلعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة ، فستنقطع الصلة بينكم و بينها وتنتقلون إلى الدار الآخرة التى ستكونون فيها مخلَّدين أبدا .

ثم وصف الحال التى تفارق فيها الروح الجسد فقال :

(إذا بلغت التراقى) أى إذا بلغت الروح أعالىَ الصدر ، وأشرفت النفس على الموت ، قال دُرَيْد بن الصِّمَّة :

ورُبَّ عظيمة دافعتُ عنها		وقد بلغت نفوسهمُ التراقى

والعرب تحذف من الكلام مايدل عليه يقولون أرسلت : يريدون أرسلت السماء المطر ، ولا تكاد تسمعهم يقولون : أرسلت السماء ، قال حاتم يخاطب زوجه :

أماوِىُّ مايغنى الثراء عن الفتى		إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

ونحو الآية قوله : « فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ » .

(وقيل مَن راق ؟) أى وقال أهله : من يرقيه ليشفيه مما نزل به ؟ قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئا ، وقال أبوقِلابة: ومنه قول الشاعر:

هل للفتى من بنات الموت من واقى		أم هل له من حِمام الموت من راقى

(وظن أنه الفراق) أى وأيقن المحتضر أن مانزل به نذير الفراق من الدنيا والمال والأهل والولد ، وسمى هذا اليقين ظنًّا ؛ لأن المرء مادامت روحه متعلقة ببدنه

يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه العاجلة كما قال: (كلا بل تحبون العاجلة) فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة .

(والتفَّت الساق بالساق) أى التوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما ، قال قتادة : أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب برجله على الأخرى ، وقال ابن عباس : المراد التفَّت شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة واختلطتا ، فالتفَّ بلاء ببلاء ، والعرب تقول لكل أمر اشتد ، شمّر عن ساقه ، وكشف عن ساقه ، قال النابغة الجعدى :

أخوالحرب إن عضَّت به الحرب عضّها وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمّرا

(إلى ربك يومئذ المساق) أى إلى خالقك يوم القيامة المرجع والمآب ، والمراد إنك صائر إلى جنة أو نار .

وجواب إذا وتمام الجملة يقدر بنحو قولنا — انكشفت للمرء حقيقة الأمر ، أو وجد ماعمله من خير أو شر حاضرا بين يديه .

ثم ذكر ما كان قد فرط منه فى الدنيا فقال :

(فلا صدَّق ولا صلى. ولكن كذب وتولى) أى فما صدَّق بالله ووحدانيته ، بل اتخذ الشركاء والأنداد وجحد كتبه التى أنزلها على أنبيائه ، وما صلى وأدَّى فرائضه التى أوجبها عليه ، بل أعرض وتولى عن الطاعة .

(ثم ذهب إلى أهله يتمطى) أى ليته اقتصر على الإعراض والتولِّى عن الطاعة بل هو قد ذهب إلى أهله جذلان فرحا ، يمشى الخيلاء متبخترا .

والخلاصة — إن هذا الكافر كان فى الدنيا مكذبا للحق بقلبه ، متوليا عن العمل بجوارحه ، معجباً بما فعل ، فلا خير فيه لاباطناً ولا ظاهراً .

ثم هدده وتوعده فقال :

(أولى لك فأولى) أى ويل لك مرة بعد أخرى ، وأهلكك الله هلا كا أقرب لك من كل شر وهلاك .

ويرى قوم أن معنى أولى أجمل وأحرى، فيكون المراد ـ النار أولى بك وأجمل.

ثم كرر هذا الوعيد فقال :

(ثم أولى لك فأولى) أى يتكرر هـذا الدعاء عليك مرة بعد أخرى ، فأنت جدير بهذا .

روى قتادة « أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ بيد أبى جهل فقال : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ، فقال عدو الله : أتوعدنى يا محمد ، والله ماتستطيع لى أنت ولا ربك شيئاً ، والله لأنا أعز من مشى بين جبليها ، فلما كان يوم بدر أشرف عليهم فقال : لايُعبد الله بعد هذا اليوم ، فقتل إذ ذاك شرّ قِتْلة » .

وعن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قول الله تعالى : « أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » أشىء قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه أم أمره الله تعالى به ؟ قال بل قاله من قِبَل نفسه ، ثم أنزله الله تعالى » .

ثم أقام الدليل على البعث من وجهين :

(١) (أيحسب الإنسان أن يترك سدًى) أى لايترك الإنسان فى الدنيا مهملا لايؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره مهملا لايحاسب ، بل هو مأمور منهى محشور إلى ربه ، فخالق الخلق لايساوى الصالح المزكّى نفسه بصالح الأعمال ، والطالح المدسّى نفسه باجتراح السيئات والآثام كما قال : « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى » وقال : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » .

وإذًا فلا بد من دار للثواب والعقاب والبعث والقيامة .

(٢) (ألم يك نطفة من منىّ يُمنى . ثم كان علقة فخلق فسوّى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ؟) أى أما كان هذا المنكر قدرةَ الله على إحيائه بعد مماته وإيجاده بعد فنائه — نطفةً فى صلب أبيه ، ثم كان علقة ثم سواه بشرا ناطقا سميعا بصيرا ، ثم جعل منه أولادا ذكورا وإناثا بإذنه وتقديره ؟ .

(أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟) أي أليس الذى أنشأ هذا الخلق السوىّ من هذه النطفة المذرة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ فذلك أهون من البدء فى قياس العقل كما قال : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

وقد جاء من طرق عدة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك اللهمّ وَبَلَى وأخرج أحمد وأبوداود وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ منكم : « وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ، وانتهى إلى آخرها : أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ » فليقل : بلى وأنا على ذلكم من الشاهدين ، ومن قرأ : « لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فانتهى إلى : أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى » فليقل بلى ، ومن قرأ المرسلات فبلغ « فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » فليقل آمنا بالله » .

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين .